الحياة السياسية الشيعية: مطالعة فی تجربة الإمام الرضا (ع)

پدیدآورده (ها) : علی صالح،نبیل
میان رشته ای :: المنهاج :: ربیع 1429 - العدد 49
از 310 تا 337
آدرس ثابت : http://www.noormags.ir/view/fa/articlepage/712761

دانلود شده توسط : رسول جعفریان
تاریخ دانلود : 14/04/1395

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی (نور) جهت ارائهٔ مجلات عرضه شده در پایگاه،مجوز لازم را از صاحبان مجلات، دریافت نموده است، بر این اساس همه حقوق مادی برآمده از ورود اطلاعات مقالات، مجلات و تألیفات موجود در پایگاه، متعلق به "مرکز نور" می باشد. بنابر این، هرگونه نشر و عرضه مقالات در قالب نوشتار و تصویر به صورت کاغذی و مانند آن، یا به صورت دیجیتالی که حاصل و بر گرفته از این پایگاه باشد، نیازمند کسب مجوز لازم، از صاحبان مجلات و مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی (نور) می باشد و تخلف از آن موجب پیگرد قانونی است. به منظور کسب اطلاعات بیشتر به صفحه قوانین و مقررات استفاده از پایگاه مجلات تخصصی نور مراجعه فرمائید.

پایگاه مجلات تخصصی نور

www.noormags.ir

الحياة السياسية الشيعية

مطالعة في تجربة الإمام الرضا عليه السلام

أ. نبيل علي صالح (*)

المبحث الأول: معاصرته للعهد العباسي

تعتبر دراسة الأوضاع السياسية ـ ومجمل التّطورات الاجتماعية لمرحلة الحكم العباسي التي عاصر جزءاً منها الإمام الرضا عليه السلام ـ فرصة مهمة لكشف الكثير من الملابسات والتعقيدات التي أحاطت بطبيعة عمل وحركة الإمام عليه السلام، وتجسّدت من خلالها المشكلة والمحنة السياسية العامة للأُمّة ـ ممثلة برموزها العظام من الأئمة عليهم السلام ـ في علاقتها مع نظامها السياسي المستبد القائم.. حيث رأينا المعاناة الكبيرة لأئمة أهل البيت عليهم السلام في ظل ضغوطات الحكم العباسي[1]، والسجل الحافل لحكامه في مجال العبث بمقدرات الأُمّة، والتلاعب المجنون بإمكانياتها وخيراتها الوافرة التي صرفوها على مواقع اللهو والطغيان النفسي والسلوكي[2].

إنّ دراسة الواقع السياسي ـ الذي عاصره الرضا عليه السلام ـ يقدم لنا صورة حية عن طبيعة الحراك السياسي الذي مارسه عليه السلام في سياق بروزه كموقع سياسي أصيل للأُمّة على صعيد دعوته إلى الإصلاح والتغيير باتجاه المبادئ والقيم الإسلامية الحقيقية القائمة على الحق والعدل والتسامح.

لقد غلبت على هذه الفترة من تاريخنا الإسلامي مظاهر التنوع والتلون والتعدد في طبيعة الأفراد والمواقف والأحداث والمعطيات السياسية، والمكونات الثقافية والاجتماعية. لذلك كان لا بد من وجود أساليب سياسية واجتماعية عملية وواقعية

(*) باحث وكاتب، من سورية.

www.noormags.ir

جديدة ـ على صعيد الإمام عليه السلام ـ لكي يستطيع عليه السلام السير من خلالها في إطار حركته الدعوتية الهادفة، وبث القوة الروحية المعنوية والمفاهيمية في داخل الأُمّة، ومواجهة تعقيداتها السياسية الكبيرة، ومحاولة إعادة المجتمع الإسلامي المسترخي إلى طريق التوازن والوعي والاعتدال في خط الجهاد النفسي والعملي، باعتبار أنّ الأُمّة عندما تواجه مشاكل وتحديات خطيرة ومعقدة تتصل بطبيعة وجودها ومصيرها تستوجب الحل الفوري، فإنها تحتاج إلى من يبين لها الطريق وينورها على حقيقة هذه التعقيدات وعلى الاحتمالات المتعددة النابعة منها، وبالتالي يرشدها إلى اتباع الأساليب الأفضل والأضمن، والمواقف والالتزامات الأكثر قدرة على تحقيق أهداف الأُمّة، وتحديد مصائرها وآمالها بما يضمن السلامة والأمان.

وفي هذا الإطار سعى الرضا عليه السلام إلى إيجاد مواقع عملية دقيقة لمجمل تحركه الاجتماعي والسياسي[٣] الهادف إلى الحفاظ على نقاوة وأصالة رسالة الأُمّة، وربما يكون قبوله بولاية العهد أحد هذه القنوات البديلة التي اعتمدها عليه السلام من أجل تحقيق بعض المكاسب والإنجازات للأُمّة والمجتمع الإسلامي، وحماية المفاهيم الأصيلة للإسلام في العقيدة والشريعة، ومحاولة فتح الساحة الإسلامية كلها على واقع التجربة الإسلامية الصحيحة[٤] ليبين للناس ـ من خلال ذلك ـ ما كان يراه ضرورياً ومناسباً مما تنازع فيه المتنازعون، وتخاصم حوله المتخاصمون.. ليضع الحقيقة بين الناس ليحكموا على هذا الطرف أو ذاك، بالرغم من أنه عليه السلام لم يشأ أبداً أن يكون في الموقع الذي يتحمل فيه تبعات الوضع السلبي القائم، والممارسات الفظيعة التي كانت ترتكبها القيادات السياسية الحاكمة باسم الإسلام آنذاك[٥]. وقد عبر الإمام عليه السلام عن رفضه الحاسم لذلك بقوله: «وأنا أقبل ذلك على أني لا أُولّي أحداً، ولا أعزل أحداً، ولا انقض رسماً، ولا سنة، وأكون في الأمر من بعيد مشيراً»[٦].

المبحث الثاني: مواقف الإمام عليه السلام من حكام عصره

عاصر الإمام الرضا عليه السلام ـ بشكل أساسي ـ ثلاثة من خلفاء وملوك العباسيين: هارون، والأمين، والمأمون. ويمكن تقسيم الوضع السياسي العام في الفترة التي عاش

www.noormags.ir

فيها إمامناعليه السلام مع هؤلاء الحكام إلى مرحلتين، الأُولى: مرحلة حكم المهدي والهادي والرشيد، والثانية: مرحلة حكم المأمون.

المرحلة الأُولى: وقد شهدت توترات سياسية واجتماعية كبرى على صعيد الحكم وممارسة السلطة في طبيعة العلاقة بين الأُمّة ورجالاتها وسلطاتها.. أي أنها كانت مرحلة متوترة وقاسية وضاغطة على أهل البيتعليهم السلام نتيجة تعرضهم المتواصل للكيد والتنكيل والملاحقة من قبل السلطات العباسية الحاكمة.

وقد شاهد الإمام الرضاعليه السلام بأُم عينيه محنة أبيه الإمام موسى الكاظمعليه السلام وهو ينقل من سجن إلى آخر، ويلاحق من قبل حكومة الرشيد وموسى الهادي، ويضيق عليه، حتى شهدنا نهاية المحنة في واقعة فخ، ومذبحة أهل البيت فيها، واستشهاد الحسين بن علي بن الحسن، ومصادرة أموالهم[٧]، وإدخالهم السجون والمحابس في عهد موسى الهادي وقطع رؤوسهم[٨]، ووضعها في اسطوانات مجوفة[٩].

ومن المعروف تاريخياً أنّ كل تلك الأحداث العنيفة كانت تجري على مرأى ومسمع إمامنا الرضاعليه السلام. ولما استشهد والده الإمام الكاظمعليه السلام وانتهت الإمامة إليه بقيعليه السلام وحيداً في مواجهة زعماء الملك العضوض.

وسنقصر حديثنا هنا عن معاصرة الإمام لعهد المأمون.

في عهد المأمون[١٠]

أسفرت المعارك التي جرت بين أهل البيت الواحد (حروب الاخوة الأعداء) عن فشل الأمين، ومن ثم مقتله وانتهاء حكمه، وصعود نجم أخيه المأمون، وتسلمه لعرش الإمبراطورية العباسية.

وقد اعتقد الناس بأن عهد الهدوء والراحة والسكينة قد بدأ مع مجيء خليفة جديد. ولكن الرياح لم تجر كما اشتهاها أبناء الأُمّة. فقد باشر المأمون ـ بعيد استلامه الفعلي للسلطة ـ بحملات ملاحقة واسعة ضد كل الفئات والتيارات المناوئة لحكمه، وأمعن في ضربهم، وإعدام أصحابها وقادتها. وبذلك تم القضاء على كل تلك الاضطرابات والفتن، مما وفر له (للمأمون) الأجواء المناسبة لتوطيد حكمه، وإحكام

www.noormags.ir

علاقته مع الفرس بتزوجه من بوران بنت الحسن بن سهل.

عاش الإمام الرضا عليه السلام سنواته الأخيرة في عهد المأمون. وقد اعتبرها عليه السلام من أسوأ الأيام التي مرت عليه في حياته كلها، وذلك بسبب كثرة المضايقات والضغوطات التي كانت تمارسها ضده الحكومة المأمونية ـ إذا صح التعبير ـ بالرغم من تظاهر رئيسها المزيف بالولاء المطلق لآل البيت عليهم السلام، وتنكرها لأساليب العنف والقمع والانتقام التي ارتكبت بحقهم في العهود السابقة(١١).

لقد وعى الرضا عليه السلام حقيقة الدوافع والأفكار التي كانت تجول في خاطر المأمون وجلاوزته، وأدرك خلفيات وأبعاد ما يكمن وراء تظاهر المأمون بموالاته وحبه للإمام عليه السلام خصوصاً بعد استدعاء المأمون له إلى خراسان.

جاء في كتاب (عيون أخبار الرضا) للشيخ الصدوق، نقلاً عن السجستاني أنه قال: لما ورد البريد بإشخاص الرضا عليه السلام إلى خراسان، كنت أنا بالمدينة فدخل المسجد ليودع رسول الله صلى الله عليه وآله، فكان يقف على القبر مودعاً باكياً، ويخرج، ثم يرجع إليه، فعل ذلك مراراً، ويعلو منه البكاء والنحيب، وتقدمت إليه وسلمت عليه وهنأته فرد عليَّ السلام، وقال: «زدني فإني اخرج من جوار جدي رسول الله صلى الله عليه وآله وأموت في غربة».

لقد كانت علاقة الإمام الرضا عليه السلام بالمأمون ـ قبل وأثناء ولاية العهد، وحتى استشهاده ـ متوترة باستمرار. وكانت تتقلب ما بين مد وجزر، بالرغم من محاولات المأمون إظهار محبته له وللأئمة عليهم السلام، وسعيه باتجاه عقد مجلس النظر والحوار التي كان يجمع فيها (المأمون) المخالفين لأهل البيت عليهم السلام ليكلمهم عن فضائل الإمام علي عليه السلام، مستدلاً على أحقيته بالخلافة، وأفضليته بالحكم والقيادة(١٢).

لقد كان من المنطقي جداً أن تنتهي تلك العلاقة المتوترة والشائكة بين إمامنا عليه السلام والمأمون إلى طريق مسدود بسبب الاختلاف الجذري في وجهات النظر، وأساليب العمل(١٣)، وقبل ذلك اختلاف وعي ورؤية كل واحد منهما لقضايا الحياة والإسلام والحكم والقيم .. الخ.

ويمكننا ملاحظة ذلك بشكل أساسي من خلال حادثة العيد عندما طلب

www.noormags.ir

المأمون من الإمام عليه السلام أن يركب ويحضر العيد، لكن الإمام اعتذر عن ذلك بناء على الشروط المسبقة والمتفق عليها بينهما في بداية قبوله عليه السلام بولاية العهد، الأمر الذي أثار حفيظة المأمون، فزاد في الطلب وألح في الأمر. وهنا علق الإمام قائلاً له: «اعفنِ وإلاّ تعفني أخرج كما يخرج رسول الله صلى الله عليه وآله، وكما خرج أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام»، فأجابه المأمون: «اُخرج كما تحب. وكان الناس يتوقعون حينها أن يخرج عليهم الإمام الرضا عليه السلام على هيئة الملوك، وبآداب ورسوم خاصة، إلاّ أنهم دهشوا لما رأوه خرج حافياً وهو يكبر. فسقط القادة عن دوابهم، ورموا بخفافهم ،وانطلقوا خلف الإمام. وكان الإمام يمشي ويقف في كل عشر خطوات وقفة ويكبر.

وبلغ المأمون ذلك، فقال له الفضل بن سهل: «يا أمير المؤمنين إن بلغ الرضا المصلى على هذا السبيل افتتن به الناس، فالرأي أن تسأله أن يرجع». فسأله الرجوع، فدعا أبو الحسن عليه السلام بخفه فلبسه ورجع[١٤].

المبحث الثالث: الإمام الرضا عليه السلام وولاية العهد

دفعت ظروف الاضطهاد والتنكيل والمطاردة والقمع ـ التي أبدعها وزاولها ملوك العباسيين، واعتبروها خطاً ونهجاً أساسياً في حكمهم ـ العلويين إلى المباشرة بتنظيم أنفسهم، وإعلان تحركهم الثوري المسلح ضد السلطة العباسية التي كان المأمون ممثلها (الشرعي؟!) آنذاك.

لقد حاول الثوار العلويون استثمار فرصة الارتباك والخلل وحالة اللااستقرار في طبيعة الأوضاع والأجواء السياسية والاجتماعية العامة التي سادت خلال فترة الانتقال غير السلمي للسلطة من الأمين إلى أخيه (وغريمه) المأمون. وعلى هذا الأساس تفجرت الثورات والانتفاضات المسلحة أيام المأمون في كل حدب وصوب[١٥]، وألهبت ـ مواقع كثيرة في أرجاء الدولة العباسية ـ بالثورات المسلحة التي رفع قادتها رايات الجهاد والرفض، ومعهم الطليعة الواعية من العلماء والمحدثين[١٦].

في هذا الجو الضاغط والمشحون بالعنف والثورات.. كيف تحرك المأمون؟! وما هي ردود أفعاله على تحديات واقعه الساخنة؟!

www.noormags.ir

فـي الواقع عاش المأمون وضعاً قلقاً ومضطرباً نتيجة ما لاقاه من ضغوط عملية صـعبة وواسـعة من خلال أمرين اثنين، الأول: الصراع المرير ـ الذي اشتعل بينه وبين أخـيه الأميـن ـ علـى العرش العباسي، والثاني: قيام الانتفاضات والثورات العلوية ضد حكمه في كل أنحاء الدولة.

لقـد قـادت الحنكة السياسية، والمكر الواقعي، وعمق التفكير بطبيعة الأحداث، المأمون إلى نتيجة مفادها: أنه ولكي:

١ ـ يأمن الخطر الذي بدأ يحاصره من خلال وجود شخصية الرضا عليه السلام الفذة.

٢ ـ ويمتص نقمة المجتمع الغاضب.

٣ ـ ويخفف من وطأة الضغوط الشعبية المتزايدة ضد نهجه الظالم، على طريق إخماد الثورات والانتفاضات المشتعلة.

٤ ـ ويكسـب مزيداً من الأنصار والأتباع إليه، ويحصل ـ بالتالي ـ على اعتراف من العلويين بشرعية الخلافة.

٥ ـ ويقـف بقـوة فـي وجـه التـيار الـثوري العلـوي المتعاظم نتيجة سياسات الإرهاب وسفك الدماء، وتضييع أموال الدولة وثروات الأُمّة، وفساد الإدارة، واضطراب الأمن.

٦ ـ وبالتالـي لكـي يحـافظ على وجوده السياسي في الحكم كأعلى رأس في الدولة العباسية، ويقوي دعائم سلطته.. فماذا عليه.. ؟! ليس عليه إلاّ أن:

أ ـ يهـادن السـادة العلويـين، أي يدجّـنهم ويحـتويهم من خلال اتّباع سياسة المكر والدهاء.

ب ـ ويتقرب من رموزهم وقادتهم.

ج ـ ويعترف لهم بحق الولاية والحكم.. وبالتالي يوهم الناس ـ من أجل كسب رضاهم وودّهم ـ بأنه بريء كلياً من تلك الأعمال والممارسات الظالمة التي ارتكبتها السلطات العباسية بحق أهل البيت عليهم السلام.. ولكن، كيف السبيل إلى ذلك؟!

لقد قرر المأمون أن يهيئ الأجواء، ويمهد الطرق لولادة مشروع سياسي خاص يهدف إلى تطويق حركة الرضا عليه السلام قبل أن تبدأ (باعتباره الإمام المعصوم الثامن

www.noormags.ir

المفروض الطاعة والقائد البارز الذي يمثل أهل بيت النبوة في عصره)، وذلك من خلال التقرب منه، وادّعاء موالاته وأحقيته بالولاية والخلافة..

في هذه الظروف التاريخية الصعبة نشأت فكرة ولاية العهد. أي مبايعة[١٧] المأمون للرضا عليه السلام بالخلافة وولاية العهد من بعده. وانطلق المأمون بعد ذلك لتنفيذ خطته، وقام بمشاورات عديدة (مع كبار القوم عنده، من أهل الخبرة والدراية بالشؤون العامة[١٨] انتهت إلى ضرورة عرض الولاية على الرضا عليه السلام، فإذا رفض ذلك يجب تهديده بالقتل[١٩].

وعلى هذا الصعيد تحدثنا كتب التاريخ[٢٠] عن قيام المأمون بعرض الخلافة على الإمام الرضا عليه السلام أولاً[٢١]، لكنه عليه السلام رفض قبولها أشد الرفض، وبقي المأمون مدة يحاول إقناعه بالقبول، فلم يفلح. وقد ورد أن محاولاته هذه استمرت في مرو وحدها أكثر من شهرين والإمام عليه السلام يأبى عليه ذلك[٢٢]، وكان عليه السلام يجيب المأمون بما يكره.

لكن الإمام عليه السلام الذي لم يكن مقتنعاً أبداً بهذا الأمر، قبل ـ تحت وطأة التهديد بالقتل ـ بولاية العهد المشروطة بعد أكثر من شهرين من المحاولات الحثيثة التي قامت بها شخصيات كثيرة كان على رأسها رجاء بن أبي الضحاك. وكانت البيعة له عليه السلام في السابع من شهر رمضان عام ٢٠١ هـ.

ونسجل هنا أبرز الروايات، (وأقوال الباحثين) الدالة على عدم قناعة الرضا عليه السلام بالولاية:

١ ـ جاء في كتاب مقاتل الطالبيين للأصفهاني: «... فأرسلهما (يعني الفضل والحسن ابني السهل) إلى علي بن موسى، فعرضا ذلك (يعني ولايته العهد) عليه، فأبى، فلم يزالا عليه، وهو يأبى ذلك، ويمتنع منه.. إلى أن قال أحدهما: (والله، أمرني بضرب عنقك، إذا خالفت ما يريد ؟؟)، ثم دعا به المأمون، وتهدده، فامتنع، فقال له قولاً شبيهاً بالتهديد. ثم قال له: إن عمر جعل الشورى في ستة أحدهم جدك، وقال: من خالف فاضربوا عنقه، ولا بدّ من قبول ذلك)[٢٣].

٢ ـ يروي آخرون: (أن المأمون قال له: يا بن رسول الله، إنما تريد بذلك (يعني بما أخبره به عن آبائه من موته قبله مسموماً) التخفيف عن نفسك، ودفع هذا

www.noormags.ir

الأمر عنك، يقول الناس: إنك زاهد في الدنيا.. فقال الرضا عليه السلام: «والله، ما كذبت منذ خلقني ربي عزّ وجلّ، وما زهدت في الدنيا للدنيا، وإني أعلم ما تريد؟!». فقال المأمون: وما أريد ؟! قال عليه السلام: «الأمان على الصدق»، قال لك الأمان، قال عليه السلام: «تريد بذلك أن يقول الناس: إن عليّ بن موسى لم يزهد في الدنيا، بل زهدت الدنيا فيه، ألا ترون كيف قبل ولاية العهد طمعاً في الخلافة؟!». فغضب المأمون، وقال له: إنك تتلقاني أبداً بما أكرهه. وقد أمنت سطوتي، فبالله أقسم: لئن قبلت ولاية العهد، وإلاّ أجبرتك على ذلك، فإن فعلت، وإلاّ ضربت عنقك..)[٢٤].

٣ ـ وقال الرضا عليه السلام في معرض رده على سؤال وجهه إليه الريان عن سر قبوله لولاية العهد: «.. قد علم الله كراهتي لذلك، فلما خُيّرت بين قبول ذلك وبين القتل، اخترت القبول على القتل.. » إلى أن قال: «ودفعتني الضرورة إلى قبول ذلك على إجبار وإكراه ، بعد الإشراف على الهلاك... الخ»[٢٥].

٤ ـ أما بالنسبة للباحثين فإن معظمهم يؤكد على رفض الإمام عليه السلام لهذا الأمر، وكراهته له، واستيائه منه.. وأنه عليه السلام قد أُجبر على سلوك طريق القبول بالولاية تحت وطأة التهديد بالقتل (وضرب العنق).

يقول أحمد أمين: «..وألزم الرضا بذلك ، فامتنع، ثم أجاب.. »[٢٦].

وقال القندوزي: «أنه قبل ولاية العهد، وهو باك حزين.. »[٢٧].

وقال المسعودي: «.. فألح عليه (يعني المأمون)، فامتنع، فأقسم، فأبر قسمه»[٢٨].

من الواضح هنا أن موافقة الإمام الرضا عليه السلام على استلام (مسؤوليات؟!) ولاية العهد، قد جاءت محمولة على شروطه الخاصة التي كشفت عن عدم رغبته الضمنية بهذا الأمر. وهذه الشروط هي:

١ ـ لا يولي أحداً.

٢ ـ لا يعزل أحداً.

٣ ـ لا ينقض رسماً.

٤ ـ أن يكون مشيراً من بعيد في شؤون الدولة[٢٩].

وفعلاً أجاز المأمون هذه الشروط التي تتصادم مع مصالحه الدنيئة، وتفضح

www.noormags.ir

نواياه السياسية الخبيثة المبيتة، وبدأ بإعلان هذا النبأ العظيم (ولاية العهد)، وأمر بنشره في أرجاء الأُمّة الإسلامية.

وجلس المأمون يوم الخميس في ديوان الخلافة، وأمر وزيره الفضل بن سهل أن يخرج للناس، ويعلن لهم عن قرار المأمون، ورأيه في الإمام الرضاعليه السلام، وعزمه على البيعة بولاية العهد من بعده، وأنه سماه «الرضا»، وأبلغهم أن المأمون يأمر بإبدال الشعار العباسي ـ لباس السواد ـ بالشعار الأخضر ولبس الثياب الخضر. وأعلن لهم عن عزم الخليفة عن صرف مرتب سنوي كامل بهذه المناسبة السعيدة، ثم طلب منهم أن يعودوا في الخميس القادم ليبايعوا الإمام الرضاعليه السلام. وجلس المأمون وإلى جانب الإمام الرضاعليه السلام في الموعد المحدد للبيعة . وأقبل القواد والوجهاء والقضاة وهم يلبسون الملابس الخضر.

وفي بعض تفاصيل البيعة أمر المأمون ولده العباس ليكون أول المبايعين. فقام وبايع الإمام الرضاعليه السلام بولاية العهد. فرفع الرضاعليه السلام يده وقد جعل باطنها إلى الناس وظاهرها مقابل وجهه فقال له المأمون: ابسط يدك للبيعة، فقال له: «إن رسول اللهصلى الله عليه وآله هكذا كان يبايع، فبايعه الناس[٣٠]».

وهكذا تمت المراسيم والاحتفالات بالبيعة التي لم يشهد التاريخ الإسلامي مثيلاً لها كما قال المؤرخون. وتوافد بعدها الشعراء والأدباء والخطباء والمهنئون[٣١]. وبذلت الأموال والعطايا والمرتبات. وتمت البيعة كما ذكرنا في رمضان سنة إحدى ومئتين للهجرة.

خطبة الإمام الرضا عليه السلام وأحوال ما بعد البيعة

تحدث الإمامعليه السلام بعد أن انتهت البيعة بكلمات وجيزة ومعبرة تفيض بالمسؤولية والوعي، وتحمل في داخلها حقيقة موقفه من مسألة الحكم، وعلاقته مع السلطة من حيث انسجامه أو عدم انسجامه معها.

قالعليه السلام بعد أن حمد الله وأثنى عليه: «إن لنا عليكم حقاً برسول اللهصلى الله عليه وآله ولكم علينا حقاً به، فإذا أدّيتم إلينا ذلك وجب علينا الحق لكم»[٣٢]. وخطبة الإمام خير دليل

www.noormags.ir

على موقفه وعدم قناعته بمستقبل البيعة، لذا أورد حين خطابه إشارة دقيقة: «فإذا أدّيتم إلينا ذلك وجب علينا الحق لكم» ولم يكلم الناس بشيء، ولم يتحدث بلسان رجل الحكم والسلطة، فما كان يقرها في نفسه. ولا يريد أن يضفي على حكم المأمون صفة الشرعية بجعل نفسه نائباً له ووصياً لملكه[٣٣].

وبعد ذلك استمر المأمون يتابع الإجراءات العملية المتممة للبيعة مؤكداً من خلالها أهمية موقع الإمام الرضا عليه السلام (ظاهرياً فقط). فأمر بإصدار النقود التي نقش عليها اسمه الشريف عليه السلام. وأصدر قراراته إلى كل الولاة والأعيان في أنحاء الدولة بضرورة ذكر اسم الإمام عليه السلام على المنابر في خطبة الجمعة، وتأكيد ولايته للعهد. وفعلاً أُعلنت البيعة للإمام من على منبر رسول الله صلى الله عليه وآله في المدينة المنورة.

ومن أجل أن يضفي المأمون الطابع الشخصي للعلاقة مع الرضا عليه السلام ـ بهدف تضليل الرأي العام، من خلال محاولة إقناعه بحسن نواياه وصدق مساعيه واتجاهه السياسي الذي سار عليه واختاره مع الإمام الرضا عليه السلام ـ قام بتزويج ابنته (أُم حبيب) من الإمام عليه السلام، وعقد للإمام محمد الجواد ابن الإمام الرضا عليه السلام على ابنته الثانية أُم الفضل.

أهم ردود الأفعال التي صدرت تجاه البيعة

تباينت مواقف وردود وأفعال الناس تجاه هذا الحدث الكبير، الذي اعتبره الكثيرون منهم حدثاً غريباً وغير مألوف إطلاقاً. إذ كيف يوافق المأمون ـ هذا الخليفة العباسي الذي أشادت أُسرته العباسية أركان حكمها على الدماء والصراعات والتناقضات ـ على نقل الخلافة ومواريث السلطة، وتسليم أُمور الدولة، وشؤون الحكم إلى شخص ينتمي إلى النهج والخط المناقض تماماً لتوجهاتها السياسية والثقافية والاجتماعية..؟!

لقد ردّ الرضا عليه السلام من جانبه على استفسارات أنصاره ومحبيه وأتباعه، وأظهر لهم حقائق هذه الواقعة.

أما على مستوى المأمون فقد ارتفعت أصوات كثيرة معلنة الاحتجاج والرفض الشديد لهذا الأمر. وكان من بين هؤلاء الرافضين قادة ورموز بني العباس. وقد أكدنا

www.noormags.ir

سابقاً أن أول من أثارهم وأدهشهم ذلك المشروع هو الحسن بن سهل، أحد أهم وزراء ومستشاري الخليفة المأمون [٣٤].

سؤال وجواب:

ما هي الرهانات الفكرية والعملية التي أراد الإمام الرضا عليه السلام تحقيقها، والعمل على إنجازها في سياق قبوله بولاية العهد (الشكلية)؟!

لقد قام الرضا عليه السلام ـ خلال المدة الزمنية التي قضاها في ولاية العهد ـ بالكثير من المهام والأعمال العلمية والثقافية، والإنجازات السياسية (غير المباشرة). واستطاع ـ في الوقت نفسه ـ أن يهيئ الأجواء المناسبة لإظهار دقائق الفكر الإسلامي الأصيل، وذخائر مبادئه الصافية في الفقه، والشريعة، والكلام، والفلسفة، والتفسير. وقد ركز عليه السلام في حركته الفكرية العملية ـ بعد استلامه ولاية العهد ـ على رهانات أخلاقية وعلمية وسياسية، يمكن ملاحظتها ومتابعتها من خلال ما يلي:

١ ـ الرهان العلمي والأخلاقي

وجد الإمام الرضا عليه السلام ـ بحسب ما نعتقد ـ أن قبوله بولاية العهد يمكن أن يساهم في تحقيق بعض المكاسب الإيجابية للخط الإسلامي المستنير الممثل بأهل البيت عليهم السلام، ويعطيه بعض الدفع والقوة على المستوى الثقافي، كان بأمس الحاجة إليه في ظل ظروف شائكة، ومناخات سياسية واجتماعية ضاغطة، كانت تعمل وتتحرك عكس الأهداف والتوجهات التي سعى إليها هذا الخط الأصيل.

فعلى المستوى الاجتماعي العام كان عليه السلام يعمل على تعليم الناس وتثقيفهم، وربطهم ـ نفسياً وفكرياً ـ بالمبادئ والقيم الإسلامية الأساسية الواعية التي التزم بها وعبّر عنها أهل بيت النبوة عليهم السلام في كل سلوكهم الاجتماعي والسياسي والثقافي. وقد لاحظنا سلامة هذا التوجه من خلال الإمام نفسه[٣٥]، وكذلك من خلال أصحابه وأتباعه وشيعته الذين أصبحوا ـ في ما بعد ـ أكثر قدرة ووعياً على التعامل مع قضايا الواقع والحياة والإنسان، والقيام بالمناظرات والحوارات العلمية الواسعة مع جميع القوى والتيارات. أما على المستوى الشخصي(العام)[٣٦]، فقد رأينا كيف استفاد الإمام عليه السلام استفادة قصوى في إبراز شخصيته العلمية الغنية والكفوءة التي قدمت أفضل

www.noormags.ir

وأعظم الخدمات للإسلام الرسالي من خلال تلك المناظرات والندوات والجلسات الحوارية التي كانت تجري برعاية المأمون، وبمشاركة لفيف كبير من العلماء والمفكرين المنتسبين لمختلف التيارات والعقائد الدينية والدهرية.

روى الطبرسي في احتجاجه، في تفسير الإمام عليه السلام لقوله تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ أنه قال: «مشرقة تنتظر ثواب ربها»، وأضاف إلى ذلك أن النبي صلى الله عليه وآله كان يقول: «قال الله جلّ جلاله: «ما آمن بي من فسر كلامي برأيه، وما عرفني من شبهني بخلقي، وما على ديني من استعمل القياس في ديني، ومن رد متشابه القرآن إلى محكمه، هدي إلى صراط مستقيم». ومضى الإمام عليه السلام يقول: «من شبّه الله بخلقه فهو مشرك، ومن نسب إليه ما نهى عنه فهو كافر[٣٧]».

٢ ـ الرهان الاجتماعي ـ السياسي

كان الإمام الرضا عليه السلام إنساناً واعياً ومدركاً تماماً لخلفيات وخبايا واقع أُمته الحضاري، لذلك لم يستطع هذا الواقع الضاغط ـ بكل فكره ورموزه وشخصياته ـ أن يخضع روحه وعقله، أو يهز قراره وإرادته، ولم تتمكن القيم السكونية (حب الاسترخاء والراحة والدعة) من الدخول إلى جوه وطبعه النفسي الخاص.

لقد وجد عليه السلام نفسه في واقع سياسي معقد ومرتبك، وشديد التنوع (بالمعنى السلبي طبعاً)، فحاول أن يفهمه ويحلله من موقع وعيه هو، لا من موقع سلبيات الواقع ذاته.

وكان من الطبيعي جداً أن يعمل الرضا عليه السلام على مواجهة هذا الواقع المنحرف عن خط الإسلام، والمفروض على الأُمّة بطريقة حركية غير مباشرة، تقوم على معيارين أساسيين في رفض أو قبول الحكم السياسي القائم:

١ ـ المعيار الأول: يتعلق بالجانب التثقيفي المعرفي في رفض التعاون مع أي نظام حاكم ظالم لا يستمد شرعيته من إجماع الأُمّة (رفض ولاية الحاكم الجائر بالمطلق).

٢ ـ المعيار الثاني: يتعلق بالجانب الحركي والواقعي في التعاون مع النظام الحاكم تحقيقاً للمصلحة الإسلامية العليا (القبول المؤقت بولاية الجائر).

www.noormags.ir

فعلى صعيد المعيار الأول: ثبت الرضا عليه السلام في أذهان أصحابه وشيعته فكرة عدم جواز معاونة الظالمين، ورفض مساعدة السلطان الجائر المنحرف، وعدم الارتباط به وبرموزه مهما كانت التحديات[٣٨]. يقول عليه السلام لسليمان الجعفري (وقد سأله عن أعمال السلطان): «يا سليمان.. الدخول في أعماله، والعون له، والسعي في حوائجه عديل الكفر»[٣٩].

ويقول عليه السلام لأحد أصحابه: «.. يا زياد لئن أسقط من حالق فأتقطع قطعة قطعة أحب إليَّ من أن أقدم لأحد منهم عملاً، أو أطأ بساط رجل منهم.. »[٤٠].

ويقول عليه السلام عن آبائه، عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «من أرضى سلطاناً بما يسخط الله خرج من دين الله عزّ وجلّ»[٤١].

ويتأكد هذا الموقف المبدئي الصحيح أكثر فأكثر من خلال استعراضنا لموقف ورأي الرضا عليه السلام من انتفاضات وثورات العلويين ضد الحكم السياسي الظالم. حيث لم ينظر عليه السلام نظرة سلبية إلى تلك التحركات الثورية من حيث طبيعة المبدأ الثوري ذاته، وما يختزنه في داخله من مناهضة للظلم ورفض العدوان والطغيان والجور والباطل، بل كان عليه السلام ـ كغيره من أئمة أهل البيت عليهم السلام ـ يبارك كل ثائر على الظلم والظالمين (حتى ولو لم ينجح عسكرياً) إذا كانت ثورته ـ طبعاً ـ ضمن الحدود المشروعة، لصالح الأُمّة[٤٢]؛ لأن الثورة النزيهة ـ في الغالب ـ تكشف للشعوب زيف الحكام، وتفضح واقعهم الكريه وممارساتهم الظالمة بحق الأُمّة، وتترك وراءها فئة تحس بالظلم والتجاوزات وتحاسب عليهما، وأحياناً تضطر الحاكم إلى تصحيح سلوكه ووسائل حكمه إلى حدٍّ ما[٤٣].

إن الاعتراض الوحيد الذي وجهه الإمام عليه السلام إلى بعض الثائرين العلويين هو احتجاجه وإدانته لسلوكهم الناري أحياناً ضد المجتمع، ولانخداعهم ببعض الأصوات التي كانت تهتف باسمهم فيدّعون ما ليس لهم، ويخرجون للثورة بدون تخطيط وتنظيم، ومن دون وجود هدف أو مصلحة عليا للأُمّة[٤٤]، وبالتالي يكون نصيبهم القتل، والتشريد، ووضع المجتمع في مواجهة خاسرة مع نفسه.

وقد لاحظنا كيف عبر الإمام الرضا عليه السلام عن رفضه الحاسم لكل تجاوزات أخيه

www.noormags.ir

زيد الملقب «بزيد النار»، حيث وقف منه ـ ومن عدوانه على المجتمع[٤٥] ـ موقفاً سلبياً متصلباً.

إننا نعتقد أن تحريم الرضا عليه السلام اللجوء إلى (والتعاون مع) السلطات والأنظمة الجائرة لم ينطلق من حالة نفسية مزاجية ارتبطت بطبيعة الأجواء المتشنجة التي عاشتها أُمتنا الإسلامية خلال ذلك التاريخ، ولكنه انطلق في إطار صيغة سياسية عملية كانت تهدف إلى تأكيد وتجذير حالة الرفض النفسي والعملي للكيانات الظالمة اللاشرعية من خلال العمل المتواصل على توعية الأُمّة وتثقيفها تربوياً ومعرفياً وسياسياً وعقائدياً على معنى الحكم العادل، ومعنى الحكم الظالم.

أما بالنسبة للمعيار الثاني (التعاون المؤقت مع ولاية الجائر)[٤٦] فقد انطلق إمامنا عليه السلام على هذا المستوى، بكل ما لديه من طاقات، حيث سلك طريق الدعوة إلى الإسلام، وترسيخ أبعاده المعرفية والعقائدية في ذهنية الأُمّة، بما في ذلك التوعية العقائدية والتثقيف السياسي بالإسلام (بصورة غير مباشرة طبعاً) من دون أن يسمح لنفسه (ولغيره من الأصحاب والشيعة) بأن يكون جزءاً من الواقع السياسي القائم ـ في نظر الإمام عليه السلام ـ على ضوابط وأُسس غير شرعية.

وقد اعترض البعض على قبول الإمام عليه السلام بالولاية، ورضاه بالتعاون مع نظام المأمون (بالرغم من أنه لم يفعل ذلك مطلقاً) قائلين: يكفي أن اسمك قد ذكر معهم حتى تصبح جزءاً منهم؟! فقال عليه السلام: «الأنبياء أفضل أم الأوصياء؟!» قالوا: الأنبياء. قال عليه السلام: «السلطان المشرك أسوأ أم السلطان المسلم الفاسق؟» قالوا: السلطان المشرك. قال: «أيهما أشد، الذي يتعاون طالباً بذلك، أم الذي يفرض عليه ذلك؟!» قالوا: الذي يطلبه. فقال عليه السلام: «كان يوسف الصديق نبياً، وعزيز مصر كان كافراً مشركاً، ويوسف طلب بنفسه: ﴿**اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ**﴾ (يوسف: ٥٥).

فقد أراد أن يأخذ موقعاً بحيث يحسن الاستفادة من ذلك الموقع، إضافة إلى أن عزيز مصر كان كافراً والمأمون مسلم فاسق. لقد كان يوسف نبياً، وأنا وصي نبي، هو طلب ذلك، وأنا أُجبرت على ذلك[٤٧].

www.noormags.ir

المبحث الرابع: المضامين العملية العامة لسيرة الإمام الرضا عليه السلام

في المجال السياسي ـ الاجتماعي (تأملات عامة وقراءة معاصرة):

يمكن لتجربة الإمام الرضا عليه السلام في الجانب السياسي ـ وفي غيره من الجوانب طبعاً ـ أن تضع بين أيدينا وعياً سياسياً مباشراً حول كيفية التعامل والمشاركة (أو عدم المشاركة) في الواقع اليومي المباشر للحكم السياسي الخاص بهذا النظام أو ذاك.

إن تلك المسألة خاضعة ـ في تصوري ـ لمدى توافر المؤهلات النوعية العالية لدى الفرد الملتزم (من وعي والتزام فكري وعملي راسخ، إرادة علمية خيرة، صبر إيجابي متوثب... الخ) القادرة على تحقيق المصلحة الواقعية الإسلامية.

لكن، لا بدّ لهذا النوع من «الدخول والمشاركة في نظام الحكم» من أن يكون محكماً ومضبوطاً بشكل كلي (قبول سلبي)، كما أن الامتناع عنه، ورفض شرعية وجوده (رفض إيجابي) لابد أن يأتي مدروساً ومنظماً. ونلاحظ ـ ضمن هذا الاتجاه ـ أنه على الرغم من وجود كل التعقيدات والضغوطات التي يمكن أن تحيط بطبيعة الانخراط في العمل السياسي للنظام العام، يبدو لنا أن سلبيات التعامل المضبوط مع الأنظمة الحاكمة غير الشرعية أفضل بكثير من كل إيجابيات الانعزال عن الواقع، والركون إلى الزوايا المهملة، والبقاء بعيداً خارج إطار آلية الحكم وتداول السلطة (إذا كان هناك مجال لتداولها طبعاً).

وهذا الكلام لا يعني بالضرورة أنه يجب علينا أن ندخل عميقاً إلى التفاصيل الدقيقة الآلية الحكم ومفاصل النظام السياسي الداخلة والخارجة ككل ـ وما يرتبه من رضى نفسي وعملي بكل الأحداث والقضايا والمسائل المتحركة على هذا المستوى، وإمضاء شرعية وجود النظام الحاكم الظالم والمستبد بكل أجوائه ومواقعه ـ ولكنه يعني ضرورة دراسة هذه التفاصيل، ووعي حقيقتها، والوقوف مطولاً أمام ملابساتها وظروفها، ومن ثم إعطاء الرأي السديد (إيجاباً أو سلباً) بشأنها.

من هنا، يمكننا أن نعتبر هذا الدخول المباشر ـ أو غير المباشر ـ إلى بعض مواقع وأجواء النظام السياسي القائم (أي نظام سياسي غير إسلامي الهوية والطرح والامتداد) خطوة أولى على طريق تهيئة الظروف وملاءمة الأوضاع لتنمية وعي

www.noormags.ir

الإنسان المسلم بإسلامه، وقضاياه السياسية والاجتماعية والثقافية.

وقد أدى الإمام الرضا عليه السلام هذا الدور الرسالي الكبير على خروجه، واستطاع ـ بالرغم من التحديات القاسية التي واجهته ـ إجلاء الغموض واللبس عن كثير من المفاهيم والتصورات الإسلامية الأصلية، وعرضها بأروع الصور، وأنقى المضامين، وأنصع البيانات، وذلك بهدف الحفاظ على طهارتها وأصالتها ونضارتها في ذهنية المجتمع وذاكرة الأُمّة.

إن قبول الإمام الرضا عليه السلام بولاية العهد، ونزوله[٤٨] إلى أرض الواقع المليء بالأشواك والحفر ـ في إطار تمسكه بإسلام الأُمّة والجماهير، وسعيه لخدمة مبادئه الرسالية وأنظمتها الفكرية والعملية ـ يمكن أن يقدم لأبناء الجيل الحاضر درساً تاريخياً مفيداً في ما يتعلق بكيفية استلهام حركية الإمام عليه السلام في كيفية تعامله مع الواقع والظروف التاريخية والسياسية والاجتماعية. ونستطيع أن نعبر عن ذلك في النقاط التالية:

١ ـ العمل على تحديد مشكلات واقعنا العربي والإسلامي المعاصر الذي يعج بالسلبيات والانقسامات[٤٩]. أي محاولة فهم أسباب الأزمة الحضارية والهزائم المتلاحقة لمجتمعاتنا العربية الإسلامية، كما حدد وفهم الرضا عليه السلام أزمة مجتمعه وظروف عصره الذي عايشه بكل قسوته وقلقه.

٢ ـ التركيز على أهمية ودور منظومة القيم الأخلاقية الإسلامية المتبصرة والمنفتحة على الحياة في قيادة مجتمعاتنا إلى شاطئ وبر الأمان، وإنقاذها من أزماتها المتوالية، وإيقاظها من سباتها العميق الذي طال أمده، ومحاولة إرجاعها إلى الساحة العالمية لكي تمارس دورها الحضاري الرائد إلى جانب باقي حضارات وثقافات العالم.

وهذا الأمر مرتبط ـ إلى حد كبير ـ بمسألة الأخلاق نفسها، وإيماننا بأنها لا يمكن أنْ تفرض من فوق بقوة الأدوات السياسية (وغير السياسية) المعروفة، ولا بقهر القوانين الإدارية والمراسيم الحقوقية، ولكنها تأتي إلى حيز التطبيق من خلال توعية الناس والمجتمع، والعمل المستمر على تعميق صلتهم الروحية بالله تعالى، وبقيمهم

www.noormags.ir

الدينية المعنوية العملية، باعتبار أنّ للأخلاق والمعنويات الإسلامية ثماراً حقيقية يمكن أنْ تبلور الوعي الجمالي بالحياة والإنسان، وتعزز حس الانشداد في داخله (الميل الروحي والمفاهيمي) نحو المبدأ والمثل الأعلى (الله تعالى) مطلق الكون والوجود والحياة.

وهذه مسألة مهمة جداً ينبغي تحديد مسؤولياتنا تجاهها، خصوصاً في ظل وجود تيارات وقوى ثقافية وسياسية علمانية راهنة يدعي معظمها امتلاك أفكار ومعارف ومعطيات ثقافية (غير إسلامية) قادرة وحدها ـ كما تدعي ـ على استلام زمام المبادرة الفعّالة الخاصة بتمثل وتحقيق قيم النهوض والتنمية في مجالنا السياسي والاجتماعي الإسلامي، وذلك من خلال بث وزرع قيم ثقافية وسياسية مختلفة من دون تمحيص أو تدقيق.

٣ ـ تعزيز النقد البنّاء في حركة المجتمع الإسلامي، يقول الإمام الرضا عليه السلام: «ليس منا من لم يحاسب نفسه في كل يوم، فإن عمل حسناً استزاد الله، وإنْ عمل سيئاً استغفر الله منه وتاب إليه»[٥٠]. إنّ دراسة هذا النص تفيدنا في تحديد رؤية الإمام عليه السلام لمسألة النقد، وذلك من خلال التأكيد على ضرورة تعميق الروح النقدية على المستويين: الذاتي الداخلي، والموضوعي الخارجي، في مفاصل اجتماعنا السياسي والمدني الإسلامي الحالي، وإعلاء كلمة العقل، وترسيخ مبدأ العقلانية الواقعية، والعمل على إيجاد تربته المناسبة. وذلك من أجل الكشف عن حقيقة أزمات[٥١] الواقع المعاصر الذي نحياه ونعايشه بإيجابياته وسلبياته، وتحليل ظروفه وأحواله المختلفة، وأخذ العبر والدروس منه، بحيث يقودنا ذلك إلى ضرورة تجديد الروح الإسلامية، والعقل الإسلامي، والانفتاح على العالم والحياة، واعتماد مبدأ الاجتهاد والتجديد، والروح العلمية المجردة، والرؤية الموضوعية للذات والإنسان وللعالم بشكل دائم.

ولذلك عندما يصبح حق التدخل، والنقد والمحاسبة، والأمر بالمعروف، ومعارضة السلطة الظالمة، ومواجهة السلطان الجائر والفاسد، من الواجبات الأساسية[٥٢] التي يجب العمل على تركيزها في واقع وحركة الأُمّة[٥٣]، فلا يمكن

www.noormags.ir

الحديث بعد ذلك عن مشروع الدولة الشمولية وسلطتها المستقلة والمنفصلة عن المجتمع والأُمّة. أي التي تقوم على نفي أي دور لأفراد المجتمع في تداول السلطة، وعدم اعتبار الأُمّة مصدراً للحكم والسلطة، مما يفقد هذه السلطة شرعية الوجود في الوجدان المجتمعي الشعبي.

إن السلطة القائمة (أية سلطة) لا تصبح شرعية في وجودها وعملها (وتحظى برضا الأُمّة والشعب) إلاّ عندما تقوم على احترام حق المجتمع في معارضة توجهاتها المختلفة، ونقد سياساتها العملية، بحيث يكون هذا الحق سلطة قانونية موازية لسلطة الدولة نفسها.

من هنا، نجد أنه من الضروري جداً العمل ـ على هذا المستوى ـ باتجاهين اثنين يكمل أحدهما الآخر، ويلازمه:

الأول: اتجاه التأويل، أي تأويل النصوص الإسلامية لمصلحة تعزيز سلطة المجتمع وحرية الفرد والجماعة، وتثبيت حق النقض والاعتراض والتصويت والتصحيح. وحتى الثورة على الحاكم الجائر وتغييره. وإلى ما هنالك من حقوق هائلة على نحو لا يخرج هذه النصوص عن دلالاتها الحية الصريحة[٥٤].

الثاني: تنظيم واجب التبليغ والدعوة في المجال الإجرائي والعملي، من خلال إعادة النظر في مهمة المبلغ نفسها، وذلك بالعودة إلى الينابيع والأصول التي أعطى لهذه المهمة الرسالية صفة السلطة الموازية، وإقامتها على قاعدة الحرية والمسؤولية ، وعلى مبدأ (كلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته)، بحيث يكون لكل فرد من أفراد المجتمع والأُمّة ـ مادام يمتلك حق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ـ سلطة عامة هي سلطة النقد غير المحصورة، والتي تطال كل الدوائر في المجتمع وفي الدولة. وبهذا المعنى فكل فرد هو عضو فعال في السلطة، ومسؤول أمام الله والمجتمع، عليه القيام بواجب ومسؤولية ممارسة أشكال النقد والمعارضة المختلفة في كل حقول التوجيه الروحي والمادي إعلاءً لقيم الأُمّة وأهدافها الرسالية العليا.

من هنا، نجد أهمية الربط بين الممارسات النقدية المسؤولة التي يقوم بها الدعاة والمبلغون وبين المؤسسات الأهلية القائمة في المجتمع، وما يرتبط فيها من

www.noormags.ir

هيئات وقوى وتيارات تناهض (وتجاهد) من أجل تحديث المجتمع السياسي، وتعميم الحريات السياسية للفرد والمجتمع ، والداعية إلى مبدأ تداول السلطة وإصلاحها واسترداد شرعيتها، وإرجاعها إلى قلب الأُمّة؛ لأنَّ في هذا الربط بين مهمة المبلغ وبين المهمات الاجتماعية والسياسية الحيوية تجديداً لدور المبلغ في مجال ترسيخ الحس النقدي لدى أبناء المجتمع وممارسة حق المعارضة، واستنقاذاً لهذا الدور من هامشيته التاريخية، ووضعاً له في موضعه الطبيعي من حياة الناس وهمومهم الجدية والمصيرية.

٤ ـ إن أية دعوة رسالية تستهدف ترسيخ قيم العدل والحرية والانتماء لله تعالى لا بد أن تواجه بمصاعب وتحديات جمة من قبل الكافرين والحاقدين والظالمين (تماماً كما وُجه الإمام الرضا بأمثال هؤلاء). لذلك يجب على العاملين السائرين في هذا الطريق الصعب والطويل، أن يشعروا جدياً بأن العمل في سبيل الله يكلف صاحبه كثيراً من الدموع والدماء، وهو بالتالي ليس نزهة يرفه فيها عن نفسه هنا وهناك.

وبهذا المعنى لا يعود العمل الرسالي الإسلامي مجرد صرخةً في فضاء المساجد، أو دعوة (دينية) شاذجة خالية من أي عقل يفكر، أو إحساس يعي، أو معنى يتحرك، ولكنه ـ كما هو في مفهومه الحقيقي الأصيل ـ أن تقف في ساحة الحياة لتنظر في مواقعها وأوضاعها الظاهرة والمخفية، ولتدرس كل انحرافاتها، وتعمل على التخلص منها بوعي وثقة وثبات. ثم تنطلق بعملية المواجهة الصادقة ضد كل أنواع الظلم ومختلف نماذجه وأساليبه سواء على المستوى الفردي في علاقتك مع نفسك وعلاقات الأفراد بعضهم البعض، أو على المستوى الاجتماعي في علاقة الجماعات مع بعضها، وفي أوضاع الحكم والحاكمين، وعلاقة الحكم القائم بالشعب، وعلاقات الدول ببعضها.

إن الإنسان الرسالي الذي يريد أن يصل إلى هذه المرحلة المتقدمة من الوعي الفاعل والمنتج، لابد أن يؤسس بنيانه وكيانه النفسي والعملي على قيم التقوى والمحبة والتسامح، لكي يكون بمقدوره تحمّل كل الضغوط والمشاكل بصلابة وعزيمة، فلا ينحني

www.noormags.ir

أمامها بضعف واهتزاز، بل يحاول أن يقتحمها بقوة وتصميم على النصر والفوز الأكيد.

إذن، المطلوب من الإنسان الرسالي هو:

أ ـ أن يقف مع الإنسان المستضعف والأُمّة المستضعفة قلباً وقالباً، ووعياً وسلوكاً وحركة ، فيتحسس آلام الناس المستضعفين ، ويلامس معاناتهم، ويعايش قضاياهم الخاصة والعامة، ويتحمل في سبيلهم كل أنواع التحديات والمشاكل النفسية والعملية.

ب ـ أن يربي الأُمّة ويصوغها رسالياً وعقائدياً بالمستوى الذي تستطيع فيه أن تملك قوة الموقف، وصلابة المبدأ والإرادة لتزيل الحاكم إذا طغى، وتجبّر، وظلم. وتزيله من مواقعه التي يريد الوصول من خلالها إلى مصالحه الخاصة.

ج ـ أن يمتلك ثقافة الحياة والعصر الذي يعيش فيه؛ ليكون قادراً على امتلاك أُسس التعامل معها، بتنوعاته وأحواله المختلفة. من أجل فهم ودراسة شروط ومناخات إدخال الإسلام إلى ذهنية العالم المعاصر بالطريقة التي تحقق له الكثير من النتائج الإيجابية على المستوى الروحي والمفاهيمي.

❊ ❊ ❊

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

الهوامش

(١) نستثني منها جزئياً فترة الانفراج القصيرة التي عاشها الرضا عليه السلام أيام الخليفة المأمون.

(٢) للوقوف على مظاهر ومواقع الهدر، ومختلف أساليب ووسائل التبذير والإسراف، يمكن مراجعة المصادر التالية:

ـ كتاب الأغاني للأصفهاني.

ـ الكامل في التاريخ لابن الأثير ٦: ٢٩٣ ـ ٢٩٥، دار صادر ـ بيروت ١٩٦٥.

ـ تاريخ الخلفاء للسيوطي: ٢٨٦، مطبعة السعادة ـ مصر ١٩٥٢.

ـ مروج الذهب للمسعودي ٣: ٣١٦ .

(٣) نؤكد هنا على أن الإمام الرضا عليه السلام لم يتحرك سياسياً بالمعنى الاصطلاحي الحركي الراهن للكلمة.. ولكن السلطات السياسية الرسمية الحاكمة آنذاك كانت تشعر بأنّ وجود الإمام عليه السلام ـ مجرد وجوده ـ في أي

www.noormags.ir

موقع من مواقع الحياة، فيه نوع من الممارسة السياسية المضادة والمخالفة لتوجهاتها السياسية وأساليبها في الحكم وإدارة الدولة. وربما يكون هذا الانفعال النفسي ـ الذي كان يعتري السلطات الحاكمة آنئذ ـ حالة وشعوراً صادقاً بعدم شرعية وجودها. لذلك فهي تخشى من الشرعية الجماهيرية والامتداد الشعبي الواسع الذي كان يتمتع به الإمام الرضا عليه السلام، الأمر الذي كان يدفعها باستمرار إلى اتّباع أسلوب القمع والضرب بالحديد والنار على أية حركة ثقافية أو سياسية أو اجتماعية كان يمارسها عليه السلام ـ أو أتباعه ـ في هذا الموقع أو ذاك.

(٤) لقد استثمر الرضا عليه السلام هذا الأمر تماماً منذ البداية، حيث اعتبر أنّ في موقف المأمون ما يثبت أحقية أهل البيت عليهم السلام بالولاية.. يقول عليه السلام: «الحمد لله الذي حفظ ما ضيع الناس، ورفع منا ما وضعوه، حتى لقد لعنّا على منابر الكفر ثمانين عاماً، وكتمت فضائلنا، وبذلت الأموال في الكذب علينا، والله يأبى لنا إلاّ أن يعلي ذكرنا ويبين فضائلنا». راجع: عيون أخبار الرضا ٢: ١٦٢.

(٥) كي لا يظن أحد بأن الإمام عليه السلام ـ المشرف عموماً على جهاز الدولة ـ هو الذي يصدر القرارات، ويعطي الأوامر ، ويدبر الأُمور، ويتدخل في شؤون الخاصة والعامة .

(٦) عيون أخبار الرضا ٢: ١٤٨؛ نور الأبصار: ١٤٣؛ الإرشاد للمفيد: ٣٦٠؛ الكافي للكليني ١: ٤٨٧؛ روضة الواعظين: ٢٢٤؛ أعلام للورى: ٣٢٠.

(٧) انظر: تاريخ الخلفاء للسيوطي: ١٠٢، مصدر سابق؛ وبحار الأنوار للمجلسي ٤٩: ٢١٠.

(٨) راجع: تاريخ الطبري ٦: ٣٢٠.

(٩) رسائل أبي بكر الخوارزمي، (رسالته إلى شيعة نيسابور): ٧٨، طبعة ١٣١٢ هـ ؛ الإمام الصادق والمذاهب الأربعة للشيخ المظفر ١: ٣٤.

(١٠) عرف عن المأمون دهاؤه، وحنكته السياسية، وقدرته على التلون والمجاملة. جاء في كتاب العقد الفريد لابن عبد ربه ١: ١٢٣ ما يلي: «بيّن المأمون للفضل بن سهل أن أخاه الأمين كان يستطيع أن ينتصر عليه، لو أنه أرسل إلى أهل البلاد التي يحكمها يخبرهم: أنه قد رفع عنهم الخراج إلى سنة (...) فحينئذ، إن لم يقبل المأمون، قامت الدنيا ضده، وإن قبل لم يجد ما يعطي الجند، فيقومون ضده وفي كلا الحالتين يكون النصر للأمين، لو وقعت بينهم الحرب. فحمد الفضل ربه على أنه لم يهتد الأمين، وأتباعه إلى هذا الرأي».

(١١) اعتاد المأمون على اتّباع مختلف وسائل وأساليب التصفية والقتل المنظم ضد كل شخص يشعر (المأمون طبعاً) بأنه يشكل خطراً على مصالحه وعرشه. وقد رأينا كيف قتل الفضل، وبكى عليه. ثم قتل أخاه الأمين. وسنرى كيف سيغتال الإمام الرضا عليه السلام ثم يبكي عليه بكاءً شديداً، و... مما يدل على دهائه ومكره الشديدين . وبالرغم من كل ذلك فقد كان يطلب من الفضل باستمرار أن يشيع عنه الزهد والتقوى والورع، ففعل. (راجع: تاريخ التمدن الإسلامي لجرجي زيدان ٤: ٢٦١). وبالإضافة إلى ذلك كان المأمون

www.noormags.ir

ولعـاً بـاللهو، والمتع، والملذات، والتبذير، وشرب الخمر. (راجع: العقد الفريد٣: ٢٥٤؛ الحضارة الإسلامية لجاك س. ريسلر: ١٠٨).

(١٢) كـان الإمـام الرضـا عليه السلام واعـياً تماماً ـ كما قلنا ـ لطبيعة نوايا ودوافع المأمون. وقد تحدث عن ذلك إلى بعـض أصـحابه قـائلاً: «لا تغتروا بقوله، فما يقتلني والله غيره، ولكنه لا بد لي من الصبر حتى يبلغ الكتاب أجله». (راجع: عيون أخبار الرضا٢: ١٨٣؛ سفينة البحار ٤٩: ١٨٩).

(١٣) لقـد أدى ذلـك في مرات كثيرة جداً إلى قيام الرضا عليه السلام بنقد سوء تصرف المأمون بشؤون العباد البلاد. يقـول أبـو الصـلت: «وكـان الرضـا عليه السلام لايحابي المأمون من حق، وكان يجيبه بما يكره في أكثر أحواله، فيغـيظه ذلـك ويحقد عليه ولا يظهر له. ولما أعيته الحيلة قتله بالسم». (بحار الأنوار ٤٩: ١٣٥؛ مسند الإمام ١: ٧٧؛ عـيون أخـبار الرضـا ٢: ١٥٣). أما الشيخ المفيد فقد أورد في إرشاده: ٣١٥ أمثلة عديدة عن مواعظ ونقديـات الرضـا عليه السلام للمأمون، حتى إنه قال له ذات مرة: «اتقِ الله في أُمّة محمد صلى الله عليه وآله، وفكر في إصلاح أمرهم». (راجع مسند الإمام ١: ٧٤).

(١٤) الكافي ١: ٤٩٠؛ عيون أخبار الرضا ٢: ٢٦٥؛ روضة الواعظين: ٢٧٧.

(١٥) كان من أبرز هذه الثورات التي حدثت في عهد الإمام الرضا عليه السلام:

أ ـ ثـورة ابـن طباطـبا عـام ٢٠٠ هـ التي اجتمع حول قائدها أنصار وجيش كبير قوامه عشرة آلاف مقاتل، دخلـوا مـع العباسـيين فـي معـارك ومناوشات عديدة انتهت بنتائج مأساوية خطيرة. حيث قتل قائد الثورة وحمـل رأسـه إلـى المـأمون ،ونصبت جثته على جسر بغداد بعد أن دامت حركته مدة عشرة أشهر فقط. (راجع: الكامل في التاريخ لابن الأثير ٦: ٣٠٢؛ مقاتل الطالبيين للأصفهاني: ٥٣١).

ب ـ ثورة محمد ابن الإمام جعفر الصادق عليه السلام بالمدينة المنورة. (مقاتل الطالبيين: ٥٣٤).

ج ـ حركة إبراهيم ابن الإمام موسى الكاظم عليه السلام. (مقاتل الطالبيين: ٥٣٤؛ الكامل في التاريخ ٦: ٣٠٠).

(١٦) لـم يُظهـر الإمام الرضا عليه السلام ـ مع ما له من مقام ديني رفيع ومرموق ـ أي تحرك، ولم يعلن رأيه الصريح أمام الناس بشأن تلك الثورات؛ لأنه كان يعلم مسبقاً بطبيعة النتائج التي ستؤول إليها تلك الحركات.

(١٧) أثارت هذه الخطوة من المأمون الدهشة والحيرة والسخط لدى العائلة العباسية، ووصل أمرها مع المأمون إلى حد إعلان بعض أفراد العائلة الثورة ضد المأمون، ومبايعتهم لعم المأمون (إبراهيم بن المهدي).

لكـن ذلـك لـم يستمر طويلاً بسبب ظهور الأُمور وانكشافها على حقيقتها، عندما رد المأمون على هؤلاء، وصـارحهم ببواطـن الأُمـور، قـائلاً: «أما ما كنت أردت من البيعة لعلي بن موسى الرضا عليه السلام فما كان ذلك منـي إلاّ أن أكـون الحاقـن لدمائكم والذائد عنكم باستدامة المودة بيننا وبينهم، وإن تزعموا أنني أردت أن يؤول إليهم عاقبة ومنفعة، فإني في تدبيركم والنظر لكم ولعقبكم وأبنائكم من بعدكم، وأنتم ساهون لاهون في غمرة تعمهون لا تعلمون ما يراد لكم».

www.noormags.ir

إنه يؤكد لهم استمرارية الخلافة في أبناء العباس، والدفاع عنها، والوقوف في وجه المضاعفات والمؤامرات التي كانت تحاك ضده. (راجع: سيرة الأئمة الأثني عشر للحسني ٢: ٣٨٤ نقلاً عن بحار الأنوار).

(١٨) قيل: إن الأمر قد اقتصر على الفضل بن سهل ، وشقيقه الحسن.

(١٩) راجع بهذا الخصوص رواية علل الشرائع؛ وأيضاً ومقاتل الطالبيين: ٥٦٢ ـ ٥٦٧ .

(٢٠) استدعى المأمون الإمام الرضا عليه السلام إلى خراسان لعرض الولاية عليه. وبعد مراسلات ومكاتبات تدل على رفض الإمام لهذا الأمر، لم يجد الرضاعليه السلام بداً من تلبية دعوة المأمون فور المضي إلى خرا سان. وفعلاً غادر عليه السلام بيت الله متوجهاً إلى خراسان، وكان يقابل في كل مدينة أو بلد ينزل بها بمنتهى الحفاوة والتقدير والإجلال. وعندما مر بمدينة نيسابور أحاط به علماء كثر، وعندما رآه الناس المحتشدون وهو بتلك الهيبة والرزانة التي تحكي هيئة جده رسول الله صلى الله عليه وآله تعالت أصواتهم بالتهليل والتكبير مشفوعة بالأسى والبكاء، وقد ضجت البقعة بالبكاء، فنادى العلماء والحفاظ: (معاشر الناس أنصتوا، وعوا ولا تأذوا رسول الله صلى الله عليه وآله في عترته).

وألقى الإمامعليه السلام على العلماء حديثاً شريفاً (الحديث الذهبي) فقال: «سمعت أبي موسى بن جعفر يقول: سمعت أبي جعفر بن محمد يقول: سمعت أبي محمد بن علي قول: سمعت أبي علي بن الحسين يقول: سمعت أبي الحسين بن علي يقول: سمعت أبي أمير المؤمنين يقول: سمعت النبي صلى الله عليه وآله يقول: لا إله إلاّ الله حصني فمن دخل حصني أمن من عذابي».

ولما مرت الراحلة نادى أهل نيسابور فقال: «ولكن بشروطها، وأنا من شروطها». (راجع: عيون أخبار الرضاعليه السلام ٢: ١٣٥. ويقال بأنه قد كتب هذا الحديث ما ينيف على عشرين ألف من العلماء والحفاظ).

ثم بعد ذلك وصلت القافلة إلى خراسان، وأمر المأمون باستقبال الرضاعليه السلام استقبالاً رسمياً حافلاً. وكان هو ـ وكبار المسؤولين وقادة الجيوش ـ في مقدمة المستقبلين. فصافح الإمام بحرارة، وخصص له داراً فخمة، وعني به عناية فائقة.

(٢١) البداية والنهاية ١٠: ٢٥٠؛ ينابيع المودة للقندوزي الحنفي: ٣٨٤؛ الآداب السلطانية: ٢١٧.

(٢٢) عيون أخبار الرضا ٢: ١٤٩؛ بحار الأنوار ٤٩: ١٣٤.

(٢٣) مقاتل الطالبيين: ٥٦٢ ـ ٥٦٣؛ إرشاد الشيخ المفيد: ٣١٠ .

(٢٤) مناقب آل أبي طالب، ابن شهراشوب ٤: ٣٦٣؛ عيون أخبار الرضا ٢: ١٤٠؛ أمال الصدوق: ٤٢؛ علل الشرائع ١: ٢٣٨ ...الخ.

(٢٥) علل الشرائع ١: ٢٣١؛ البحار ٤٩: ١٣٠؛ روضة الواعظين ١: ٢٦٨؛ أمالي الصدوق: ٧٢ ... الخ.

(٢٦) ضحى الإسلام ٣: ٢٩٤.

www.noormags.ir

(٢٧) ينابيع المودة: ٢٨٤.

(٢٨) إثبات الوصية: ٢٠٥.

(٢٩) عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ١٩. ويمكن مراجعة نص الوثيقة في مصادر تاريخية كثيرة من أهمها: صبح الأعشى للقلقشندي ٩: ٣٩١ ـ ٣٩٣؛ مآثر الإنافة في معالم الخلافة ٢: ٣٢٥ ـ ٣٣٦؛ الفصول المهمة لابن الصباغ المالكي: ٢٩٣؛ مسند الرضا عليه السلام ١: ١٠٢ ـ ١٠٧: وسفينة البحار ٤٩: ١٤٨ ـ ١٥٨؛ بالإضافة إلى المناقب وتذكرة الخواص لابن الجوزي؛ والمجالس الشيعية؛ و ... الخ .

(٣٠) أبو الفرج الأصفهاني، مقاتل الطالبيين: ٥٦٤؛ الإرشاد: ٣١١.

(٣١) ذكر المدائني أنه لما جلس الرضا في ذلك المجلس بجانب المأمون وهو لابس تلك الخلع، والخطباء يتكلمون ، وتلك الألوية تخفق على رأسه، نظر أبو الحسن الرضا عليه السلام إلى بعض حواريه الحاضرين ممن كان يختص به، وقد داخله من السرور ما لا عليه يزيد، وذلك لما رأى، فأشار إليه الرضا عليه السلام ، فدنا منه وقال له في أُذنه سراً: «ألاّ تشغل قلبك بشيء مما ترى في هذا الأمر، ولا تستبشر فإنه لا يتم».

(٣٢) مقاتل الطالبيين: ٥٦٤؛ في رحاب أهل البيت للسيد محسن الأمين ٤: ١٢١؛ الإرشاد للشيخ المفيد: ٣١١.

(٣٣) سيرة الأئمة الأثني عشر ، الحسني ٢: ٤٧١ مؤسسة البلاغ.

(٣٤) ذكرنا سابقاً في أحد الهوامش رد فعل العباسيين على بيعة الإمام عليه السلام، عندما قاموا بمبايعة إبراهيم ابن الخليفة المهدي ولياً للعهد، وقد كان هذا الرجل معروفاً بولعه الشديد للغناء والطرب وحسن المنادم. (راجع: الكامل في التاريخ، ابن الأثير ٦: ٣٢٧؛ وفيات الأعيان لابن خلكان ١: ٣٩ و ٣: ٢٧٠).

(٣٥) جاء في كتاب نثر الدرر: «أن المأمون قال للرضا عليه السلام: يا أبا الحسن أخبرني عن جدك علي بن أبي طالب بأي وجه هو قسيم الجنة والنار، فقال عليه السلام: «يا أمير المؤمنين ألم ترو عن أبيك، عن آبائه، عن عبد الله بن عباس أنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «حب علي إيمان وبغضه كفر»، قال: بلا، قال الرضا عليه السلام: «بذلك كان قسيم الجنة والنار»، قال له المأمون: لا أبقاني الله بعدك يا أبا الحسن، أشهد أنك وارث علم رسول الله صلى الله عليه وآله. (راجع: سيرة الأئمة الثني عشر، الحسني ٢: ٤٠٢).

(٣٦) نحن لا نقصد من خلال استخدامنا لكلمة «الشخصي» هنا أن الإمام عليه السلام كان يهدف من وراء عمله العلمي إلى بناء مجد شخصي على حساب الإسلام والمسلمين، ولكن نريد بذلك أن نؤكد أن هذه المناظرات والندوات ـ التي كانت تعقد باستمرار خلال ولايته للعهد ـ قد قدمته عليه السلام بصفة صاحب مشروع ونهج علمي وثقافي كبير، يرتكز على مبادئ وقواعد الإيمان الديني الإسلامي ، وأبرزته كقائد رسالي فذ استطاع أن ينفع الناس بالإسلام (أكثر مما انتفع هو) من خلال وجوده الشخصي كولي للعهد بالرغم من رفضه المطلق لهذه الولاية (الشكلية). لكن الأمر الذي يبقى حاضراً في ذهنية الأجيال اللاحقة باستمرار هو أنّ الإمام الرضا عليه السلام قد دعا إلى الإسلام العقلاني الإنساني، وحاول أن يوصل ثوابته وأركانه

www.noormags.ir

في ذهنية الأُمّة بالرغم من وجود أزمات سياسية واجتماعية عاشها عليه السلام.

(٣٧) راجع: سيرة الأئمة الاثني عشر، الحسني ٢: ٤٦٠ .

(٣٨) هـذا المنطق ـ الرافض بالمطلق إعطاء أي شرعية لأنظمة الاستبداد والظلم في أي زمان ومكان ـ لم يكن يعني بالضرورة عدم وجود استثناءات أو بدائل واقعية لكيفية التعامل مع أولئك الظلمة بما يضمن المحافظة على الخطوط الإسلامية الأساسية.

(٣٩) وسائل الشيعة ٦: ١٣٨.

(٤٠) انظر: الاستبصار للطوسي ٦: ٣٣٣ . والذي يجدر ذكره هنا هو أن هذا الحديث نفسه ينسب للإمام الكاظم عليه السلام.

(٤١) عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ٦٦.

(٤٢) جاء في رواية عيون أخبار الرضا، عن محمد بن يزيد النحوي، عن أبيه أنه قال: إن المأمون وهب جرم زيد بن موسى إلى أخيه الرضا عليه السلام وقال له: يا أبا الحسن لأن خرج أخوك وفعل ما فعل، فلقد خرج قبله زيد بن علي وقتل، ولولا مكانك مني لقتلتك، فليس ما أتاه بصغير. فقال الإمام الرضا عليه السلام: «يا أمير المؤمنين لا تقس أخي زيداً إلى زيد بن علي بن الحسين فإنه من علماء آل محمد صلى الله عليه وآله، غضب لله عزّ وجلّ، فجاهد أعداءه حتى قتل في سبيله، ولقد حدثني أبي موسى بن جعفر أنه سمع أباه جعفر بن محمد يقول: «رحم الله عمي زيداً، أنه دعا إلى الرضا من آل محمد، ولو ظفر لوفى بما دعا إليه، ولقد استشارني في خروجه فقلت له: يا عم إن رضيت أن تكون المقتول بالكناسة فشأنك، فلما ولي قال جعفر بن محمد: ويل لمن سمع داعيته فلم يجبه». فقال له المأمون: يا أبا الحسن أليس قد جاء فيما ادعى الإمامة بغير حقها ما جاء، فقال الإمام الرضا عليه السلام: «إن زيد بن علي لم يدع ما ليس له بحق، وأنه كان أتقى لله من ذلك، إنه قال: «أدعوكم إلى الضامن من آل محمد، وكان زيد والله ممن خطب بهذه الآية: ﴿ **وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ** ﴾». (راجع: سيرة الأئمة للحسني٢: ٤٠١). ونلاحظ بعد دراسة هذه الرواية أن الإمام عليه السلام يركز على معنى الثورة الواعية المستنيرة التي تقوم على أساس وجود أهداف إسلامية واضحة، وتمارس أعمالاً شرعية منظمة (نموذج ثورة زيد بن علي) ويدافع عليه السلام عنها بقوة، ويعتبرها ثورة تقوى لله.

(٤٣) سيرة الأئمة الاثني عشر للحسني ٢: ٣٩٨ .

(٤٤) لقد كانت معظم تلك الثورات انفعالية ساذجة، ومليئة بالتناقضات الذاتية، حتى من قبل قواعدها الشعبية الملتزمة بها، ولذلك كانت النتائج التي أدت إليها هذه الثورات سلبية وأحياناً كارثية، ولم تقدم أية خدمة للمجتمع. وبطبيعة الحال يعود سبب إخفاق معظم تلك الثورات ـ في وعيها وسلوكها ـ إلى انعدام الإدراك الكامل، والوعي الموضوعي الواقعي بأهداف وغايات الدولة الإسلامية والإيمان بواقعيتها وأهميتها التاريخية.

(٤٥) راجع بعض أعمال زيد وتجاوزاته ـ وروايات أُخرى عنه ـ في كتاب: سيرة الأئمة الاثني عشر للحسني

www.noormags.ir

٢: ٣٩٦.

(٤٦) قلنا بأن الأئمة عليهم السلام كانوا ـ من جهة أُولى ـ ينهون بشدة عن التعاون والتقارب مع الجهاز السياسي (وغير السياسي) الحاكم لبني أُمية وبني العباس.. بينما كانوا ـ من جهة ثانية ـ يعطون رخصاً شرعية لبعض الأفراد تقضي بالإمضاء والموافقة على انخراطهم في جهاز هذه الدولة أو تلك، من أجل تحقيق بعض المصالح والأهداف الإسلامية العليا المتصلة بمصير وجود الأُمّة، ومحاولة تخفيف بعض المظالم والشرور عن كاهل المجتمع الإسلامي. ونذكر هنا على سبيل المثال لا الحصر: علي بن يقطين، أو إسماعيل بن بزيع... حيث توجد روايات وأقوال كثيرة تثني وتمدح هذين العاملين في خط الله، وأمثالهما من قبيل: أن هؤلاء من أولياء الله الأول». ولزيادة الإطلاع على موضوعية «ولاية الجائر» يمكن مراجعة كتاب المكاسب للشيخ الأنصاري.

(٤٧) مرتضى مطهري، سيرة الأئمة عليهم السلام: ١٨٧، دار الهادي، ط. ٢.

(٤٨) إننا نعتقد أنه من الضروري والمفيد جداً لحركية الإسلام أنْ ينفتح الفقيه المسلم على شؤون المجتمع كله، ويتصل بكل قضاياه الخاصة والعامة؛ لأنّ ذلك هو الذي يمكن له أنْ يحمي المبادئ والقضايا الأساسية العامة من الذاتية والتفرد، ويعطي للفقيه مساحة واسعة، ورؤية شاملة للواقع، ويحميه من الوقوع في الخطأ. كما أنه يحمل الأُمّة مسؤولية قراراتها المرتبطة بالفقيه والمرجع من خلال مشاركتها معه في صنع هذه القرارات.

(٤٩) سنتناول لاحقاً إحدى أهم المشكلات القائمة، وهي مشكلة القبلية السياسية والثقافية، وعقلية المصلحة والانتفاع الشخصي، وغياب إرادة الإصلاح والتغيير، بالإضافة إلى أهمية دور الإسلام في مواجهة هذه النزعة القبلية والطغيان السياسي باعتبارها من الظواهر المرضية التي لا تزال تفعل فعلها السلبي في داخل اجتماعنا الديني والسياسي.

(٥٠) راجع أُصول الكافي ٢: ٢٠٣؛ الاختصاص للشيخ المفيد: ٥١، باب ٤. قد يظن البعض أن هذا الحديث مختص بالجانب العاطفي الوجداني (النفسي) من حياة الإنسان؛ لأنه يحضه على التزام النقد والمحاسبة على صعيده الذاتي فقط، ولكننا نؤكد ـ بالرغم من اعتقادنا بالصحة النسبية لهذا الرأي الذي يتم تداوله في بعض الأوساط التي تعتبر أن الدين (الإسلامي خصوصاً) هو مجرد علاقة روحية بين العبد وخالقه، ولا علاقة له بالحياة والواقع ـ على أنّ المراد منه أيضاً ممارسة الإعداد الروحي والبناء الأخلاقي الإسلامي المتين، وتوعية الإنسان المسلم، كجزء أساسي من مسيرته التكاملية نحو تمثل قيم الإسلام العادل وتحقيق تشريعاته ومبادئه في الحياة كلها، في السياسة والاجتماع والاقتصاد و ... الخ.

فبناء النفس وتنمية الروح (والأخلاق المعنوية الذاتية) هو أساس بناء وتنمية الواقع الخارجي؛ ليكون بالتالي تغيير ما بالنفس هو الأساس لتغيير ما بالواقع. من هنا جاء تركيز الإسلام على ضرورة تعميق منهج

www.noormags.ir

وخـط الإعـداد الروحي عند الإنسان المسلم (الجهاد الأكبر)؛ ليكون ذلك مقدمة لازمة حيوية لتغيير الحياة والواقع في الاتجاه الذي يحقق كرامة الإنسان وعدالة الوجود.

(٥١) قلـنا سـابقاً: إنَّ سـيطرة العقلية القبلية على قطاعات واسعة من أجهزة الحكم السياسي العربي والإسلامي بكـل أجوائـه وامتداداته، تشكل إحدى أهم المسببات الرئيسة لأزمات واقعنا المتلاحقة التي تكبله وتمنعه مـن الانطـلاق نحـو مواقع العمل والإنتاج، وترهن وجوده لصالح نزعات طغيانية ذاتية ليس لأصحابها من هـم سوى تكريس مصالحهم وأهوائهم، على حساب الدولة والأُمّة ككل. وقد وعدنا القارئ العزيز بدراسة هـذه القضـية فـي مبحـث لاحـق، ونحن لا نزال على وعدنا. لكننا نجد هنا ضرورة الإشارة إلى أن امتداد جـذور هذه الأزمة ـ التي تعصف بمجتمعاتنا الإسلامية اليوم ـ قد أدى إلى بناء حداثة غربية مشوهة وغير نظـيفة فـي تلك المجتمعات. لذلك ليس هناك من أمل للخروج من هذه الأزمة العميقة (وحداثتها المزيفة الكسـيحة) إلاّ بتوجـيه سـهام الـنقد الموضـوعي إلـى الجذور النفسية والفكرية التي أنتجت وولدت هذه الحداثـة ، وتهيـئة شروط جديدة لتجاوزها، والخروج من أخطارها العقيمة. والواجب يقتضي منا ـ في هذا المجال ـ العمل على إنجاز ما يلي:

١ ـ نقد الدولة الوطنية الحديثة بالذات، في مفهومها ، ومصدر قيمها.

٢ ـ نقد عقيدة ارتباط التقدم التاريخي بالدولة.

٣ ـ نقـد فكـرة تعظـيم دور الطلـيعة الحزبـية المغلقـة، والإدارات القائمة، وفضح تضخيمها لأجهزة القمع والضـبط والـردع والكبـت، بوسائلها الخاصة والعامة التي أصبحت استراتيجية سياسية وثقافية عامة للدولة الوطنـية (والقومـية) العربـية الحديـثة، بحيـث بات معدل بناء السجون والمعتقلات، والمنافي الصحراوية، ومعسكرات المراقبة والتجميع، ونقاط التفتيش، وأجهزة المخابرات، أكبر بكثير من معدل بناء المستشفيات والمدارس ومرافق الخدمات الاجتماعية الأُخرى.

(٥٢) مـن الطبيعـي أن يكـون هـذا الواجـب أساسـياً ولـيس ثانوياً خصوصاً مع توافر كم هائل من النصوص الإسـلامية التـي تفـيض بمعاني وتعابير المعارضة والنقض والمساءلة، الأمر الذي يفتح المجال الواسع أمام نظـرية الاجتماعـي والسياسـي للإسـلام لكي تتأسس على قيم النقد والمحاسبة والمعارضة البناءة للحكم القائم.

(٥٣) العلامة السيد محمد حسن الأمين، مجلة الشاهد، عدد: ٤١، ص ٨٠.

(٥٤) لقـد حصـرت السـلطات السياسـية القائمة في عالمنا الإسلامي (منذ تاريخها الماضي وحتى الآن) مهمة التبلـيغ بأشـخاص قامـت بتعيـنهم، بمراسـيم قانونـية، وخصصـت لهم رواتب من خزينتها، ونظمت لهم مجـالات العمـل والدعـوة والتبلـيغ. وقـد أدى ذلك إلى تقليص الشعور لدى الأفراد والجماعات بواجب المشـاركة في نشر الدعوة والقيام بمهمة التبليغ والنقد، وبالتالي تراجع حس المسؤولية الفردية والمجتمعية

www.noormags.ir

تجاه انحرافات هذه السلطة، ومؤسساتها وأشخاصها عن نهج الإسلام وتشريعاته. فصار الوعظ ترفاً، والواعظ موظفاً عند السلطة السياسية وخادماً لها، ومنفذاً لسياساتها (وأحياناً كثيرة مدافعاً عن صنميتها). ولعل التقليد الذي زرعه النظام الأموي على يد معاوية في داخل الاتجاه التبليغي السلطوي ـ إذا صح التعبير ـ في تكريس فقرة من خطبة الجمعة للنيل من الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، وشتمه علناً على امتداد حقبة طويلة من العصر الأموي، وتعميم ذلك على امتداد رقعة العالم الإسلامي، هو أبلغ دليل على العلاقة العضوية بين مشروع تنظيم الوعظ، والهدف السياسي النفعي (الذرائعي) لهذا التنظيم.

وقد أفضى هذا الأجراء (إجراء تحويل التبليغ والنقد والدعوة إلى وظيفة ومهنةٌ خاصة للسلطة السياسية نفسها) إلى تعطيل سلطة المجتمع، وانحصار ممارسة الواقع السياسي بأشخاص ورموز السلطة القائمة، وانفصال الدولة عن الأُمّة .ولا يزال هذا الانفصال مكرساً وقائماً حتى عصرنا الراهن. ويبدو لنا أن السجال الدائر حالياً حول مفهوم الشورى والديموقراطية (وما يتفرع عنهما من حقوق النقد والمعارضة.. الخ) ليس إلاّ مظهراً لحسرة مكبوتة وكامنة في وجدان الإنسان المسلم، وهي حسرة أننا كنا من أوائل من سبق لإطلاق وتأسيس هذا النموذج السياسي (المدني) في ترسيخ حق النقض والمساءلة والاعتراض، ثم لم نعمل به، بل بقي صامتاً طوال قرون طويلة.

وهنا يجب ألاّ ننسى أن مشروع السلطة التاريخي الذي نجح في إنجاز فصل السلطة عن المجتمع، والإبقاء على النموذج السابق طي الكتمان العملي ـ إذا صح التعبير ـ لم يمنع المجتمع من ممارسة واتّباع أساليب مختلفة للتعبير عن رفضه الحاسم لتلك السياسات الظالمة. وما الممانعات المضيئة على صورة الثورات والانتفاضات (ومن أبرزها ثورة الحسين) في وجه استبداد السلطة عبر تاريخنا، سوى ثمرة من ثمار تلك المعطيات المشار إليها.

www.noormags.ir